من القصص العربي

المرأة المدبرة

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

كانوا جماعة من أصحاب الجمع والمنع ، ينتحلون الاقتصاد و الذفقة ، والتنمية للمال، والتدبير للزمن. وقد صار هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يدعو إلى التناصر . وكان من شأنهم أن يجتمعوا أصيل كل يوم فى مسجد البصرة فهو مجمعهم وناديهم ، ينحون منه ناحية نائية ، ثم يجرون فى شعاب الحديث ، ولا حديث لهم إلا ما يتصل بمذهبهم ، ويلائم نحلتهم من أخبار أهل التدبير والاقتصاد ، ونوادر أهل التنمية والإمساك المال ، وهم فى ذلك كله إنما يلتمسون الفائدة لشأنهم ، والصلاح لحالهم . فشعارهم فى ذلك قول الأول : « مذاكرة الرجال تلقح الألباب !! »

قال الراوى : ولقد رأيتهم فى يوم وقد جلسوا مجلسهم ، والتفوا حلقة كعادتهم ، فما كاد يقر قرارهم ويطمئن بهم المكان حتى اندفع شيخ منهم يقول بصوت متهدج ونبرة مستلينة ولهجة آسفة : ما شأنكم اليوم يا قوم ؟ كأنكم ما شعرتم بموت «مريم الصناع» ، وقد كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، ولها فى التدبير شأن أي شأن

قال القوم : وما عندك من حديث هذه المرأة عليها رحمة الله ؟ !

قال: حديثها طويل ، ونوادرها كثيرة ، ولكن أخبركم بواحدة وأحسب فيها الكفاية ، فقد زوجت ابنتها وهى بنت اثنتى عشرة ، فحلتها الذهب والفضة ، وكستها المروى والوشى ، والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب ، وغلمت أمرها فى عين الختن ، ورفعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها : أنى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله . قال : دعى عنك الجلة وهاتى التفسير . والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك ، إلا أن تكونى قد وقعت على كنز . وكيف دار الأمر فقد أسقطت عنى مؤونة ، وكفيتنى هذه النائبة . قالت : إعلم أنى منذ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة ؛ وكنا كما قد علمت نخبز فى كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته !! قال زوجها : ثبت الله رأيك وأرشدك . ولقد أسعد الله من كنت له سكناً ، وبارك لمن جعلت له إلفاً ، ولهذا وشبهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من الذود إلى الذود إبل » وإنى على عرفك الصالح وعلى مذهبك المحمود ، وما فرحى بهذا منك بأشد من فرحى بما يثبت الله فى عقبى من هذه الطريقة المرضية !!

قال شيخ آخر يقرون له بالرياسة ، ويقدرون فيه الكياسة : حقاً يا إخوان ، إن موت هذه المرأة المدبرة النافعة فاجعة فاقرة ، وخسارة لا تعوض ، وما أحسب زوجها إلا باخعا نفسه على أثرها حزناً وحسرة . ومن فيكم ينكر أن « المرأة المدبرة » هى لزوجها كل ما يطلب فى هذه الحياة من صلاح الحال ، واستقامة الدنيا ؟ وإن لى شأناً مع زوجتى فى ذلك أحب أن أنفعكم به ؛ فقد اشتكيت أياماً صدرى من سعال كان أصابنى ، فأشار على قوم بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز

وأشباه ذلك ، فاستثقلت المؤونة ، وكرهت الكافة ، ورجوت العافية . فبينا أنا أدافع الأيام إذ قال لى بعض الموفقين : عليك بماء النخالة فاحسه حاراً . فحسوته ، فاذا هو طيب جداً ، وإذا هو يعصم ، فما جمت ، ولا اشتهيت الطعام في ذلك اليوم إلى الظهر . ثم ما فرغت من غدائى وغسل يدى حتى قاربت العصر ؛ فلما قرب وقت غدائى من وقت عشائى طوبت العشاء . وعرفت باباً من أبواب القصد ، فقلت للعجوز لم لا تطحنين لعيالنا فى كل غداة نخالة ، فان ماءها جلاء للصدر ، وقوتها غذاء وعصمة ، ثم تجففين النخالة بعد ، فتعود كما كانت ، فتبيعين الجميع إذن بمثل الثمن الأول ، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين ! قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لنا بهذا السمال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك؛ وماأشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق!

قال القوم : صدقت ! فإن مثل هذا لا يكتسب بالرأى ولا يكون إلا سماويًا !

فأقبل شيخ من نهاية الحلقة يقول: حسبكم ياقوم حسبكم ، فلم أر فى وضع الأمور مواضعها ، وفى توفيتها غاية حقوقها « كمعاذة العنبرية » ، فانها المرأة المدبرة بحق

قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟

قال : أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة ، فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لى قيم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لامنفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لامحالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر إلى تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر فى جذع من جذوع السقف ، فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك ! وأما المصران فإنه لأوتار المندفة وبنا إلى ذلك أعظم حاجة ! وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرف ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منه ، وإذا كانت كذلك فهى أسرع فى القدر لقلة ما يخالطها من الدخان ! ! وأما الأهاب والجلد نفسه فجراب ، وللصوف وجوه لا تدفع ! وأما الفرث والبعر فحطب إذا جفف عجيب ! ثم قالت : بقى الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وإن له مواضع يجوز ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيّة فى قلبى ، وقذىً فى عينى ، وهمًّا لا يزال يعاودنى!

فانطلق بى الفكر فى ارتياد الحيلة ، ولكنى لم ألبث أن رأيتها قد تطلقت وتبسمت ، فقلت : ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم ؟ !

قالت : أجل ! ذكرت أن عندى قدوراً شامية جدداً ، وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ولا أزيد فى قوتها ولا أصلح لحالها من التلطيخ بالدم الحار الدسم . وقد استرحت الآن إذ وقع كل شىء موقعه ! ثم لقيتها بعد ستة أشهر كاملة فقلت لها : كيف كان قديد تلك الشاة ؟ قالت : بأبى أنت ! لم يجىء وقت القديد بعد ! لنا فى الشحم والألية والجنوب والعظم وغير ذلك معاش ، ولكل شىء ياصاحبي إبان

قال رئيس القوم : حقاً حقاً ! لا يعلم الواحد منا أنه من المسرفين ، حتى يسمع أخبار الصالحين !

محمد فريد عبد اللطيف